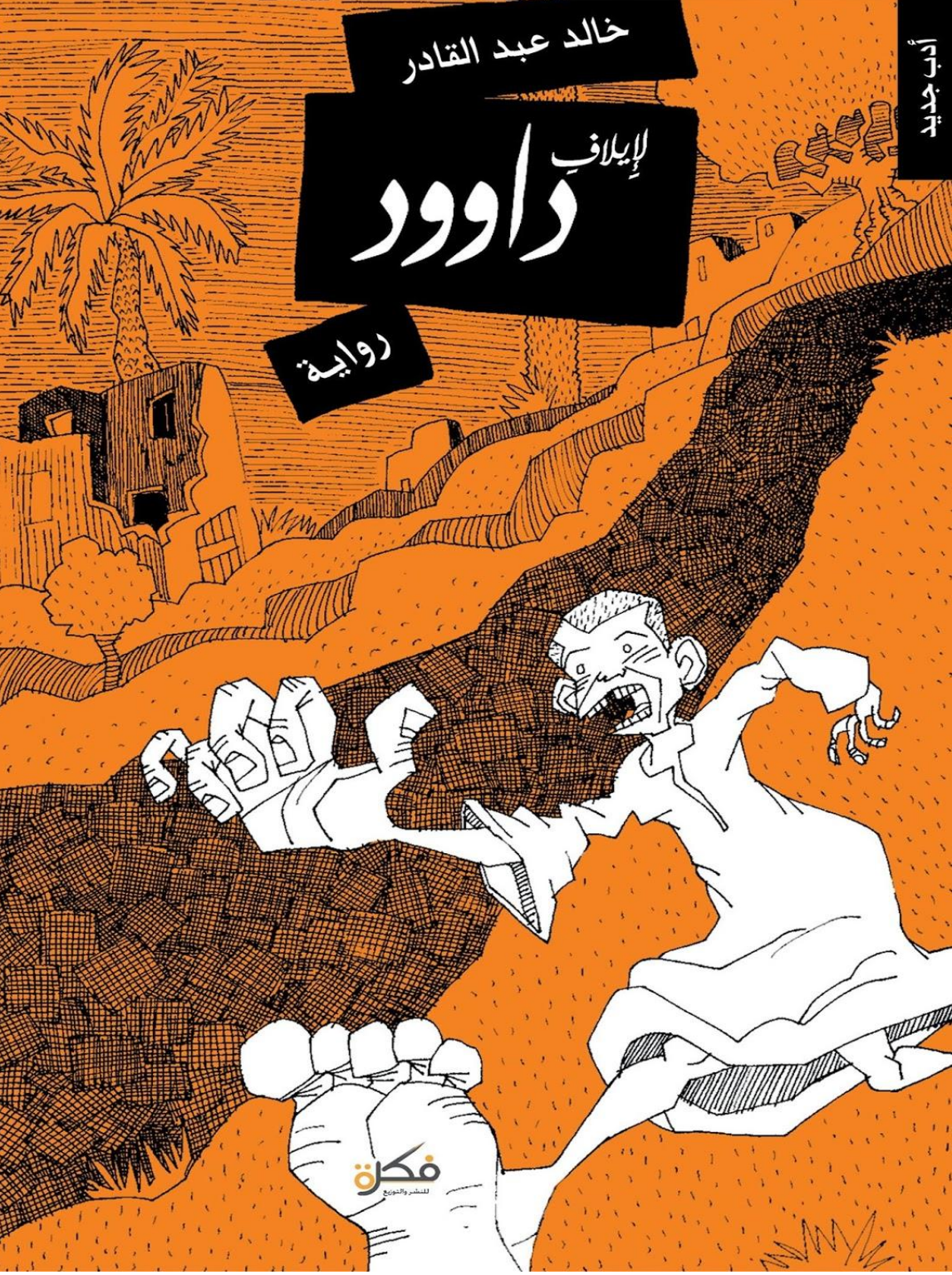

خالد عبد القادر

لإيلافِ داوود

رواية

أدب جديد

فكرة للنشر والتوزيع

لإِيلافِ داوود

رواية

خالد عبد القادر

لِدَمي

ذلك الذي لا يصير ماء.

وأنا الراوي، لا أنت، أذكّرك الآن بمنادي قريةٍ كان يقف على سطح بيت ويصرخ: جاء الضبع. فيهرول عشراتٌ من أمثالـــكَ إلى كهف القرية.

محمود درويش / في حضرة الغياب

صيف

(1)

كان للصيف صوتُ حصانٍ ينفخ من منخريه بعد جولة ركضٍ طويلة، وكان للشمس أزيزها الذي يتشابك مع أزيز أسلاك كهرباء الضغط العالي التي تمرّ غرب البلد؛ القرية التي كأنما خُيِّرتْ لاتخاذ مكانها أينما شاءت، فهداها طبع سكانها إلى كف جثة الجبل الغربي حيث تسيل الرمال من جراح الجبل، فيحدُّ انسيابها تكويناتٌ طينيّة و حجرية فيما يسمّى بيوتاً. يأخذ الأسفلت شرقَ البلد شكل ثعبان أسود طويل تناثرت على جسده بقع عديدة يراها السائر من بعيد، وكلما اقترب ابتعدتْ البقع المائيّة. فوق الأسفلت تتقافز سيارات قليلة، يلسع الأسفلت مطاطَها، وتركض حمير هزيلةٌ بركّابها، ويبدو على كليهما الحمار وصاحبه – فزعٌ، كأن شيطاناً يطارده بمحاذاة الأسفلت شرقاً، تتمدد ترعة يسميها الأهالي (أبا حمار)، وربما حدث هذا لِما يطفو في كثير من الأحيان من جثثٍ نافقةٍ على سطح الترعة. ينمو الهيش والحَلْف على حافتي الترعة، بينما يكسو سطحها ورد النيل والذي لكثافته اتخذ بعض العيال منه معبراً للناحية الأخرى من الترعة، فَيمشون فوق الماء عليه كالسَّحَرة.

خَلَتْ شوارع البلد الترابية من الكائنات، إلا مِن ثعابين وسحالي تعبر بين الحين والآخر، من بيت إلى بيت ومن بناء خَرِب إلى غيره مما يصلح للَّعب مع قرائنها. القائلة، أو (القيّالة) كما يحلو لها أن تسمي نفسها، فرضتْ على الجميع حظر التجوال، وألجأتْ الناس إلى بيوتهم، فصارت البيوت خنادقَ، وصارت البلد بأكملها كأنما وقع عليها غضب من الله فلم يتبقَ منها سوى أطلالها الطينيّة. وحده النخل كان يتململ في مكانه يريد الفرار من هذا الجحيم إلى بقعة تصلح للحياة، ولكن لا رياح تساعده على خطته، فبقى مكانه مرغماً، كريماً يمنح الظلّ لمن لجأ إليه

(2)

قِزْمانِ تحت قامات النخل، الواحد منّا في حجم عقلة إصبع بالنسبة لنخلة، حافيان نتحاشى الأرض الملتهبة وفخاخ الشوك؛ التي لم يقصد أحد – ولا حتى الشوك نفسه – أن تتخذ أماكنها في الخفي والمفاجئ من الأماكن تحت النخل. كنا نسير قبل هذا بقليل في طريق الحاجر؛ وهو طريق ترابيّ ينام على حدود البلد يفصلها عن الأسفلت، فلمحَنا النخل وأشارَ لنا بسعف جريدِهِ أن تعالوا وخذوا طريقكم في الظلّ أيها الشقيّان نخترق أنا وأشرف – رفيق الصيد والطردّياتِ – دغل النخل الذي يتجمّل ويسمّي نفسه على لسان أهلنا بالكروم، ولا أظن أبداً أن

أهلنا يعرفون علاقة الكروم بالعنب، هل هما أخَوانِ، فإن كانا فمن أبوهما! تلك عادتهم، تلذذهم في اختراع الحكاية ونقش تفاصيلها بعناية فائقة، فتبدو رغم سذاجتها وخياليّتها في كثير من الأحيان قصة حقيقيّة لمن لا يعلم كثيراً عن ألسنة الناس بتلك البلد. حتى الأشياء طاب لها أن تسمّي نفسها بنفسها، وبالاسم الذي يحلو لها، تمنح اسمها الخاص للقرويين فينادونها كما تشاء.

كان غريباً – بل وأسطورياً – علينا نحن الطِّفْلين، أن نقصد مكاناً وحشيّا كذلك الذي نمشي إليه، والذي يتحاشاه الكبار في كل وقت. شجرة النبق التي تطلّ على ساقية (الحاج عدوي) هي مبتغانا. رُدِمت الساقية وظلت الشجرة راعية لعهدها، تطلق حفيف أوراقها كأنه (عَديد) نسوةِ البلد العجائز، ترثي أطلال الساقية أو تنادي على من يمرّ بالقرب، فيتهيّأ في ذهن البعض أنها الندّاهة التي حكت لهم جدّاتهم عنها.

توقفت أمسح أنفي الذي يسيل منه دم الرّعاف قطراتٍ صغيرة بصدر جلبابي، فازداد الجلباب بقعة أخرى ضمن خريطة لا تنتهي من البقع التي تشير إلى آثار البلح والرمّان والنبق وقليل من الدهن. نفخ أشرف في ضيقٍ وهو يتوقف وينظر لي: ينعل أبو أم مناخيرك دي، أنت كل شوية هتوقف عشان تمسحها ! يا اخي اقلع المنديل اللي عامل زي عَصْبة

الحريم ده وحطّه عليها. يطلُّ الصبرُ الصغيرُ من عيني اليمنى، اليمنى فقط، فعيني اليسرى أربط عليها وعلى مقدمة رأسي منديلاً قماشـيّا ينـافس جلبابي في قذارته. يصيبني الصيف بالرمد والرعاف ومرض الصدر، بينما يصيب أشرف بقروح تنتشر بقدميه، أسفل كاحليه، ولا تتركة إلا هدنة في الخريف.

أكملنا مسيرة الصيد، يتوقف صاحبي بين حين وآخر نـاظراً لي، ثم ينحني محاولاً أن يحكّ قدميه بأظافره الطويلة السوداء، ولكـن يكتفـي بالضغط حول فوهة أحد البراكين بقدمه، فلا يخرج منها شيء، فيكتفي بعض شفتيه. ورأيت أنا رأيَه؛ أن أستخدم المنديل المعصوب على رأسي في سدِّ أنفي، ومشيت وراءه يسبقني كالدليل وأتبعه بعيني المتورمة، أكاد أمشي مائلا لليسار من ثقلٍ أحسَّه بعيني ومن انعدام رؤيتي بها.

النبقة الطيبة،كم تبتهج لرؤيتنا، فكأننا أهلها الذين يَصِلون لحاءها أو خشبها أو أي شيء يصلح ليكون رحم الشجرة. نهزّ فروعها القريبة من الأرض فتساقط علينا نبقاً جَنيًّاً، وإن أخذها الدلال وامتنعت؛ أطلقنـا أذرعنا تلتقط الأحجار وترشقها بين الأغصان بدون تصويب، فتجيبنـا الشجرة بوابل مماثل من النبق بما يكفي لملء جيوب جلبابينا.

(3)

جيوبنا ملآنة بالنبق، وطريق العودة صامتٌ لا يقطعه سوى سباب صاحبي لكل ما نلقاه في طريقنا. نمشي بين أحواض أرضٍ مرويّةٍ قريباً، رغم سيرنا على حدود الأحواض إلاّ أن الطين التصق بباطن أقدامنا. لعن أشرف أبا أمّ العطش أكثر من مرة، النبق يسبب العطش كما يسببه البلح الأخضر غير الناضج أو (النارِخ) كما يدعوه الأهلُ و النخلُ. قلت وأنا ألقي بنواة ثمرة نبقٍ باتجاه هُدهُد يقف على نخلة قتيلة ممددة على الأرض: هنعدّي على المزاير، نشرب وناخد نَفسْنا، المطرح هناك هاوي وكله طراوة.كدت أسمع زمجرة من ناحية صاحبي بعد قولي هذا وكنت أعرف فيما يفكر، نفس الأفكار تصعد في رأسي الآن وتتهيّأ لي أمام عيني الواحدة. عدنا لطريق الحاجر، نسلكه حتى أول البلد ونعطف فيه على المزاير، والمزاير السبيل السلسبيل؛ سبيل ماء أسمنتي له شكل مستطيل وينقسم لقسمين؛ الأول: غرفة ترتفع أعلى من المتر فوق الأرض وتمتلئ بالماء، والثاني: حوض في نفس عَرض الغرفة ولكن أقل ارتفاعاً، ماؤه عكِرٌ يمتلئ بالطحالب والأغصان الجافة التي تشبَّعت بالمياه، مخصص لشرب الدواب. الحاجر يحدَّه النخل غرباً وسور طيني يفصله عن الزراعات شرقاً، خلا كشوارع البلد إلا شقّيِّنِ صغيرينِ.

لمكان المزاير ظلٌّ وهواء بارد، كأنه يأتي من كل الجهات، وكان المكان ذو الهواء البارد يصِف نفسه آنذاكَ - ولا يزال - بصفة (امْحَدْحِد)، وربما اشتُقَّتْ الكلمةُ مِن (حَدْحَد) الماء بغرفة المزاير راكدٌ، لا شك أن قاعه يضجّ بالطحالب وكائنات أخرى شتى أصابها الغرق وأخرى تسبح بقدرة قادر.

بوصولنا المزاير داعب هواؤها المحدْحِد وجوهنا، فكأنّ عرقَنا المالح ذهب في ثانية وظهر بدلا منه ندى باردٌ على جبهتينا. جرى أشرف للطلمبة اليدويّة الحمراء التي تجاور السبيل، والتي تآكل لون طلائها الأحمر وأبقى ألواناً صدئة تغطي جسدها وذراعها. أمسك صاحبي يد الطلمبة وهزها هزّتين فوجدها مهربة؛ ذهب ماؤها غوراً وهرباً في ماسورتها للأسفل ورجع لاستقراره الأفقي في جوف الأرض. ترك أشرف يد الطلمبة وركل جسدها، فكان لعودة يدها لمكانها في نفس توقيت الركلة صوت أنين. تألمت الطلمبة من الركلة؛ الطلمبة التي تنتظر العابرين في طريق الحاجر، وكلما عرج عليها أحد وصافحها من يدها غنتْ له مرحبة ودعتْه للرقص معها. أن تمسك يد طلمبة وهزّها فيهتز جسدك كلّه بينما بالكاد يهتز جسدها هي، ويخرج الماء بارداً نقيّا، فهذه رقصة الطلمبة، ولا يكون الماء إلا بهذه الرقصة حسبما أظنّ.

نطلب الماء عَصيّاً، ولكننا نعرف الحل، كوزانِ من المـــاء يُصـــبَّانِ في جوف الطلمبة مع رفع وخفض يدها في سرعة، بعدها يخرج الماء، عكراً في البداية ثم لا يلبث أن يبتسم ويعود لصفائه. الماء يخرج عكراً، نوقظه من نومه السفليّ ونحضَره فيبدو غاضباً ثم يكتشف الوجوه قريبة النسب له فيروق ويهدأ، أما الطلمبة فكأنها تقول: اسقِني وراقصْني، يكُنْ لـــك مائي زلالاً المشكلة الآن في وعاء نحمل فيه ماء بمـــا يكفـــي لتشـــغيل الطلمبة. بحثنا فوجدته قبل أشرف، علبة من علب بذور الطماطم الجافة، صدئة وإن ظلّت ثمرة طماطم مرسومة عليها متشحة بالأحمر الباهـــت، مُضعْضَعة كأنما داست عليها ناقةُ سلمان العربي.

ثلاثة كيزان أتيتُ بها من عين المزاير وأشرف يراقص الطلمبـــة الـــتي رفضتْ الانسجام في البداية، ثم جاء ماؤها دفقاً ساقعاً. دقيقة من الرقص كانت كافية ليكون الماء أبيض صالحاً للعَب. كان أشرف أكثر عطشـــاً ولشفتيه بياض من أثر النبق والجفاف، لذا أخذتُ مكانـــه وراقصـــتُ الطلمبة بدلاً منه، ومال هو على فمها ولصق شفتيه في بوزِهـــا وأخـــذ يعبّ من مائها إلى أن ابتلَّ نصف ثوبه الأمامي وصدره ووجهه، ولّمـــا جاء دوري في الشرب لم أزِد إلا أن فعلت مثل ما فعل صاحبي.

لّما أنسنا المكان وذهب عطشنا الكافر، جلسنا على سور حوض المزاير، نراقب كائنات سوداء صغيرة في حجم حبة الحمُّص ولها ذيل رفيع، تسبح بالحوض بين الطحالب والرواسب، الكائنات التي تسمي نفسها (جُعْمُص) نختلف أنا وصاحبي على مصيرها، فيقول هو أنها ستصير سمكاً عندما تكبر، وأؤكد أنا على أنها ضفادع صغيرة ستكبر وتنقّ ثم تحاول عبور الأسفلت فتهرسها السيارات. داعب أشرف بقطعة من جريد النخل اليابس سرباً من الجُعْمُص فتفرقتْ ثم اجتمعت وأخذ يلاعبها بالعصا فأثبتت أنها لا سمك ولا ضفادع، إنما فئران مائيّة حديثة الفقس.

(4)

قال أشرف دون أن يرفع نظره عن لعبته، صابغاً لهجته بشيء من الجدّ: الشيخ محمود أبو علم الدين ع يقول أن المزاير فيها عفريت. وجدت نفسي أتابع معه لعبته وإن بدا لي أن رفع بصري إلى أي مكان فيه خطر أكيد: عارف يا عم. ده كمان عَ يقول إنه في البير المردومة دي. وأشرتُ بيدي دون أن أنظر إلى الحفرة قريبة القاع الباقية من البئر المردومة على بعد أمتار من المزاير. الآن سنرى من سيكسب في اللعبة، بدا على حركة يده بالعصا وراء الجعْمُص بعض الاهتزاز، وإن أكمل في

مسار اللعب: أنا سمعت إن فيه ناس نفسْهُم عَ يطلع عفاريت؛ مطرح ما يروحوا يطلعوا لهم.

شعري المجعد الخشن، الذي جعله العرَق ورفضي للغسيل الجبْريّ كُتلاً غير محددة الشكل، بدأت أحسّه واقفاً شعرةً شعرةً، وإن لم أستسلم: أبويا نَفسه عَ يطلّع عفاريت، مرة كان راجع كنت ناوياً الاسترسال في الحكاية مخترعاً ومضيفاً وواصفاً عفريتاً لا وجود له، مخيفاً طويلاً عريضاً ناريّاً.. لكن لحظة واحدة وكان ما أحاول وصفه أمامنا بالفعل. انتصب لنا في لحظة واحدة من وراء الحوض، بدا كأنه خارجا من تحت الأرض. لم يكن هناك وقت لأي شيء سوى الجرْي باتجاه البيوت وبكل قوتنا ولم أعرف من منّا الذي صرخ: أُماااااااااه القاعدة في هذه الحالات هي الجري دون النظر للخلف، جرينا لسنوات وسنوات، يتقافز من جيوبنا النبق راسما خطّين في طريق الحاجر. الصيف قليل الهواء، نفذ الهواء فتحشرجت العضلات. قبل اليأس أو السقوط الأخير، حانت منّي التفاتةٌ هلِعة ورائي دون أن أقف، فصرخت باكياً، وحذا صاحبي حذوي ونظر خلفه، فتشابكت وتقاطعت صرخاتنا، فالعفريت الذي قفز في وجهنا تحوّل إلى كلب أسود ضخم وها هو يعدو وراءنا. بعد أزمان أخرى من الجري، تجرَّأتُ ونظرت للخلف فوجدته، العفريت / الكلب، واقفاً على قائميه الخلفيين مُخرِجاً لساناً

أحمر في لون الدم، وما أن بدأنا نتهالك على طول المسافة، حتى بدأ ملاحقتنا من جديد. تكرر هذا مرة بعد مرة، حتى ولْولَ صاحبي: اتنين، دول اتنين. كان يتحدث أثناء الجري فلم أفهم تماماً، ولكن بنظرة أخرى للخلف أدركت ما يقصده، ففي وسط الطريق بعد المزاير بقليل، كان يقف العفريت الطويل الأول، بينما يلاحقنا الثاني على هيئة كلب. أنا مِتُّ وتعفنتْ بقيَّتي من الرعب، ووقعت ووقع أشرف مائة مرة. أخيراً جاءت النجدة على هيئة رجلينِ قادمينِ باتجاهنا من ناحية البيوت، أول ما برق في ذهني أنهما عفريتان آخران، أو أنهما نفس العفريتين خلفنا. لكن بعد ثانية تعرَّفنا على وجهيهما، (سلامة أبو طالب) الخفير ومعه (أدهم أبو النَمَكي). لم نتوقف حتى جاوزناهما فارتمينا على الأرض نلهث لهاث الكلاب، فتوقفا وصاح سلامة أبو طالب: فيه إيه ياد منك ليه ؟

لم ينطق أحد منا لوقت طويل، فأنهضانا وهما يكرران السؤال. أشرنا بيدينا نحن الاثنان، صائحينِ ومرغيينِ في خِوار كالإبل. ولّما استمع لنا الخفير ورفيقه ووصلت لفهمهما كلمات مثل عفريت، اتنين، المزاير ...، نظرا باتجاه أشاراتنا وضحكا. قال سلامة أبو طالب وأسنانه الفضّية تلمع في ضوء الشمس: أحسن مين قال لكم تطلعوا دلوقتي في القيَّالة دي يا ولاد الكلب عشان تحرّموا

نظرنا ناحية العفريتين ففهمنا سر ضحكهما واطمئنانهما من ناحية العفريتين، فما كان ما نهرب منه سوى (عبد العال أبو بَلْطة) المجذوب، والكلب كلبُه.

عبد العال أبو بَلطة اختار منامه هو والكلب بجوار الحوض من الناحية الأخرى التي لم نرها، حيث الظل والهدوء، وكما يبدو أننا أزعجناه وقضضنا نومه. وبدا ما غاب عنا، فعبد العال أبو بلطة كان يقف عند المزاير، بينما كلبه يطاردنا، والكلب كان يطاردنا كلما هدأت سرعتنا، ثم يتوقف، وهكذا كان الكلب يطردنا لحساب سيده فحسب.

لم تنقطع شهقاتنا ونهنهاتنا، حتى بعد اكتشافنا لحقيقة العفاريت، ونحن نستند على سور الزراعات المسمّى (الحُجَّار)، وإن لم تبْدُ أيّةُ لمحة من الشفقة على الرجلين الواقفين أمامنا يتطلعان بشماتة لطفلين خائفين. اثنان أحدهما غفير يحمل بندقية خشبية مُضفرة بقطع من المعدن في بعض أجزائها، والآخر (أدهم) يحمل حبلاً عريضاً من ألياف النخل وبلطة حديدية، يلمع حدُّها في وهج مؤذٍ. يعملُ أدهم عمل (عبد العال المجذوب) السابقَ، يُقلِّم النخل ويجْنيه في موسم نضوجه، وأكثر من مرة

شاهدناه يصعد على جذع نخلة طويلة لولبية كأنه يمشي على طريق أفقي مستوٍ ومُمهّد، ثم يستقر برأس النخلة بين جريدها فيتساقط الجريد المقطوع أو تهبط سلة مصنوعة من سعف الجريد اليابس، مليئة بالبلح الرطب، مدلاةً بحبل مربوط في خصر أدهم نفسه بالأعلى.

(5)

انصرفا عنّا في طريقهما لعمل ما، ربما طلب الخفير من صاحبه تقليم نخل له أو غير ذلك مما لم يشغلنا وقتها. كان همّي كله في منديلي، الذي فقدته أثناء هروبنا، والذي لن أجرؤ على العودة للبحث عنه. كما انشغل أشرف بالعصا الصغيرة التي لم يفقدها في هروبنا، والتي تركت في إحدى سقطاته شقّاً طولياً بجلبابه يمتدّ أسفل صدره حتى صرّته. راجعينِ إلى البيت كُنّا، والعصْرُ يتثاءب ويستعد ليلقي ظلاً على المكان، يشغلنا عقاب الوالدين. أمي لن تعفيني من توبيخها لفقد المنديل، كما أن أبا أشرف سيمنحه عَلقة نظيفة. افترقنا عند الجامع الشرقي الذي يحمل اسم أحد شهداء حرب سابقة في صحراء أخرى، مصادفة حمل الاسم.

تفاديت على قدر استطاعتي أثناء دخولي بيتنا أن أواجه أمي، و قصدتُ حوش البيت مباشرةً، حيث يستقر البلاصيُّ، أو (العِلاوة) كما

يقولُ الفخّار، في حفرة طينية صغيرة تحفظ استقراره الأفقي. أمسكت بأُذُن كوب الألمونيوم المستقر فوق رأس البلاصيّ، وقبضتُ على أُذُن البلاصي نفسه وأنا أميله ليصبّ ماءه في الكوب، وإذا بأمي تهتف من ورائي: الله الله، كنت فين يا غراب البين ؟! انفلت مني البلاصي فتدفق ماؤه على الأرض وعلى قدمي وعبثاً حاولتُ الإمساك به قبل أن يفرغ: كنت كنت كنت قاعد في جنينة الفرحان مع ثروت. لم تصدق إجابتي وهي تدور لتواجهني وتتطلع في وجهي: مال وشك أصفر زي الكركم ؟ وفين منديلك ضيعته ؟ كنت فين ياد بعينك المشَوّمَة دي يا قارِشهُم ؟ لّما لم أرد عليها تمَّنتْ أكثر في وجهي وهيئتي ثم أشارت لي وكأنها نَسيتْ موضوع المنديل: غور اتغدى، الطبلية محطوطة وعليها بضنجان مقلي وجبنة، متاكلش بصل عشان عينك. لم تكن لي شهية للأكل، وفضلت النوم حتى صباح اليوم التالي، لأصحو مريضاً بالحمى.

وقف الصيف وأشار للناس بأنَّ: اسمي القـــيظُ، ولكـــم أن تنـــادوني بـــ(القِيض). النار امرأتي، والحرائق هن بناتي. فهلَّل الناس وكبَّروا وقالوا نزرع له زرعاً يكنْ قربانَنا له، فكانت الذرة الرفيعة، التي ما إن شـــبَّتْ عن الأرض حتى قالت: أنا للصيف واسمي لاسمه وليكنْ اسمي (القِيضي).

فاصلة الحمّى

القيظ يا عالمُ يملأ جسدي وينفخني متورماً، أبْعِـــدوا عـــني العفاريـــت والبنادق والبلط والمناديل والشوْك وأبْعِدوا عني الذرة (القِيضي) التي يخرج منها كل ذلك

أبي مسافر منذ ما لا أذكره من الأعوام، لم يجمعني به البيت عدا زيارة لم تدُمْ سوى أيام قليلة. أمي تقوم بكل شيء بداية من شؤون البيت حتى واجبات المشاركة في المآتم والأفراح والمنازعات. كل ما أعرفه عـــن أبي صوته الذي ينبعث من الكاسيت كلما زارنا أحد العائدين من عنده، مع بعض الملابس الجديدة، وصورته على حائط الغرفة القِبليّة المعقود سقفها بجذوع النخل والطين، صورته ذات اللونيين الأبيض والأســـود والـــتي يبتسم فيها دون داعٍ.

أعاني من غياب بيني وبين أبي يكاد يكون جهلاً به، بينمـــا يعـــاني أشرف من وجود أبيه في حياته. يعمل أبوه(بيَّاضاً)؛ تاجر بيض متنقـــل على حماره الذي يركبه هو وقفصان كبيران، يمرّ يوميا علـــى البيـــوت فيجمع بيض الدجاج من نساء البلد، ويبيع أقمشة وملابـــس داخليـــة وخارجية وأحذية رخيصة وعطوراً أرخص. يثرثر مع الجميع بـــانطلاق

وفي أمور تافهة، لكن ما أن يرى أشرف حتى يتجهّم ويتوعده بسبب وبدون سبب، وكثيرا ما ينفذ وعيده ضرباً وركلاً متخلّلاً بالشتائم البذيئة.

قيل لي أن أبي يعمل في العراق، كما قيل لِثروت أن أباهُ في الكويت، و لم يشرح لي أحدٌ ماذا يكون العراق والكويت،أيكون الواحد منهما بلداً لهُ مكانٌ و زمانٌ مثل بلدنا؟! وأهله ما شكلهم يا تُرى؟!. على أيةِ حال؛ لن يكون أكبر من البلد؛ بلدنا. أحاول استحضار أبي في ليالي الصيف فأجدني أحاول تركيب صورته الجدارية الشاحبة على صوته في شريط الكاسيت، فتعجزني فروق الحجم بين إطار الصورة والشريط، ويتبقّى لي ذهنٌ مكدود يستسلم، مع جسدٍ أكثر تعباً، للنوم.

لأبي بيتان في البلد، بيتنا بحري البلد، وبيت أخوتي قِبْلي البلد. أخي وأختي اللذانِ يكبراني بما لا أعرفه من الأعوام، أمهما ماتتْ و لم أرَها. من معاملة أخوتي لأمي تأكدّتُ أنهما لم يريْا أمهما، أو ربما لم تكنْ لهما أمٌ من الأساس. تزوّج أخي في بيت أبي الآخَر، وغادرتْهُ أختي إلى بيت زوجها في نجعٍ قريب. لم يكن مسموحاً لي بدخول البيت الآخر سواء قبلما أو بعدما أصبح البيتُ بيت أخي. لا أرى ملامح أبي في وجه أخويَّ. المرة الأولى التي رأيتُ فيها أبي عائداً من سفره البعيد، كان

ضاحكاً، طلبتْ أمي مني أن أحتضنه بعدما أخبرتني بطريقة صعبة أنـــه بالفعل أبي الذي أسألها عنه، فاحتضنته إرضاء لها، وقبل أن يأخذ مكانه في ذاكرتي غاب مرة أخرى. كان هذا ملازماً لحديث الناس عن الغزو، فأصبح الغزو مرادفاً زمنياً لا يعني شيئاً سوى أن أبي كان هنا ذات يوم.

تغيَر الثعابين أثوابها كل صيف. أمّا (الآف)؛ ذلك الثعبان العجـــوز الذي أصابته الحكمة بعد هِرمٍ، فقدْ نبت له ريش على جسده، وظنّ أنه بهذا يستطيع الطيران، فلمّا حاول الطيران سقط في بئر مهجورة، فبكى، فاكتشف الدموع، وكان هو أول ثعبان يبكي. وحدَث أنّه لّما مسّـــتْ أولى دموعه تراب قاع البئر صارت لؤلؤاً، فبكى، فتجمع اللؤلؤ وأصبح جوهرة صغيرة، فابتلعها الآفُ وقال هي علامة أتَّبعها وســـكن البئـــر. وأصبح كل صيف يُخرِجُ لؤلؤتَه ويبكي فتزداد حجماً ويبلعها بانتـــهاء الصيف. وأتى صيفٌ طويلٌ بكى فيه كثيراً فزادت الجوهرة حجما غـــير قليل، فابتلعها بصعوبةٍ فاختنق، و لم ينجده أحد فمـــات. واختفـــت الجوهرة. لذا؛ من يقتل الآف قبل أن تقتله الجوهرة، يَفز بجوهرة الآَف.

(1)

صيفٌ آخر، لكنه هو نفسه مهما تنكّر، أعرفه من بين ألف فصل وفصل. أتى ليلوِّن الدبابير والفراشات. خرجنا أنا وصاحبي لصيد الدبابير متسلحين بالتدريب على صيد الدبابير الصغيرة قليلة الألوان، حتى نصل لاصطياد الدبابير الكبيرة ذات الألوان الذهبية التي لا تتواجد بالقرب من البلد بل تطير بعيدا بين النخل والشجر وعلى المصارف وعلى هيش الترعة. أسبوع ونحن يركبنا العناد ويدلدِلُ رِجليه على أكتافنا، نصر على اصطياد الدبابير الكبيرة دون جدوى، فلما يأسْنا اقترحتُ على رفيقي أن نغيّر نشاطنا بشرط ألا نتخلَّى عن الصيد ذاته، وليكن صيداً عظيماً. وكان تفكيراً وتدبيراً ونحن جلوس على مصطبة جامع الشهيد قبل أن يهبط المغرب في ردائه الداكن. قلتُ: عارف يا أشرف؛ أنا نفسي في جوهرة الأَف. فما كان إلا أن لكمني في صدري صائحاً: بلاش السيرة دي أحسن، وبعدين أنت أصلاً خوّاف. نفيتُ عني ما اتهمني به واتهمته بالخوف. تعاركنا، وانفض مجلس التدبير.

(2)

أصابني (ثروت) بالنِّبْلة. كان يختبيء وراء سور الفسقيّة، التي تستند على سور الجامع الخلفيّ، و يحمل في جيبه ذخيرةً من نوى البلح الجاف. نوى البلح يحمل مفرده اسم (فَصايَة) ويحمل جمْعُه اسم (فَصى). نوى البلح يلسع في الظهر ويورم الرأس إذا أُطْلِق بالنبلة، و ثروت يفعل هذا فقط لتمضية الوقت أو لتحسين مهارات التصويب لديه، يختارني في جلستي على مصطبة الجامع كهدفٍ للتدريب. لم أستطع اكتشاف منبع الطلقات المتوالية من النوى إلاّ بعد أن تعَالى صياحٌ من ناحية الفسقيّة، واستطلعتُ فوجدتُ صاحبي (أشرف) وهو يمسك (ثروت) من تلابيبه ويرفعه ويلقيه أرضاً عدة مرات. كنا متخاصمينِ - أنا وصاحبي - منذ يوم، وهي مدة طويلة لخصام ليس بيننا.

كانت الغنيمة هي النبْلة ومخزن نوى البلح الجاف، وفرّ ثروت باكياً. على نفس المصطبة جلست مع صاحبي وتبادلنا التصويب على طيور الزرزور التي تحطّ فوق صهريج الجامع، وقبل نضوب الذخيرة أصابنا الملل، فعدنا لتدبيرنا أمور صيدِنا. اقترحتُ اقتراحا فرحَّب أشرف به. في

ضُحى اليوم التالي دبرنا العدة اللازمة، عصاوان طويلتان من جريد النخل، خيوط وسنانير من عند (أبو الحِدِق) العطّار، قِطَع إسفنجيَّة من شباشب قديمة، وأخيرا طُعْم أخرجناه من قنوات ليّنة وسط الغيطان بعد تخريب كثير للمزروعات.

كالعادة؛ شطحنا في اتخاذ مكان صيدنا فاخترنا مكانا بعيداً، بعد اتفاق عسير. كان أشرف يحاول قدر المستطاع أن يسير دون أن تشتبك سنَّارته بأغصان الصفصاف الكثيرة على مصرف (علي أبو أحمد) الذي يصبّ عموديا في الترعة، بينما أسير بجواره قائداً ودليلاً، فالمكان الذي نقصده يحتاج خبرة خاصة في المناورة وعدم الاشتباك مع الشجر أو المارّة على الطريق الضيق المجاور للمصرف، ومعرفة كبيرةً بالتفاصيل الغزيرة المحيطة.كنّا نستأجر أرضاً – ذات موسم – تجاور المكان الذي نقصده، وكنت أذهب مع أخي الكبير لِحشّ البرسيم والعودة بحملٍ منه على حمارٍ أبيض اللون أسود القلب. حِمْل البرسيم، أو (الرَّمُوس) كما يُدعى، كان كثيراً ما يصل للبيت ناقصاً ذابلاً من كثرة وقوعه ووقوعي من فوقه، وكان أخي لا يتأخَّر في توبيخي، هذا إذا لم يسارع بلطْمي، فحمارنا الأبيض يجفل من همس الفراشة، ولا يعبر بجوار أي مجرى مائي إلا وأوقع راكبه في قلب هذا المجرى. وبوصولنا للبلد، أحمل حزمة كبيرة

من البرسيم بين ذراعيّ، تعادل (باطاً). والباط في مقياس البرسيم هو ما يملأ ما بين ذراعي رجلٍ أو عيل من أغصان البرسيم الأخضر.

نحبُّ القيّالة وتحبنا، هي وقتنا المناسب لفعل أي شيء عـــدا النـــوم. نجلس لنطعِّم السنّار بالدود الأحمر، بعد أن نكون قد قتلناه قتلاً مبيناً بين كفوفنا. لا أشيرُ إلى مهارةٍ في الصيد، فلعدةِ أيامٍ لم نصطد إلا عـــدداً لا يتجاوز عشر سمكاتٍ صغيراتٍ، المصادفة وحدها أوقعتها في أيـــدينا، لا مهارتنا في مراقبة الغمز ولا خفّة الشدّ ولا جودة التطعـــيم، وأرجعنـــا الصيدَ في كل مرة إلى الماء، لصغر حجمه، فكلُّه من نـــوع (الصِـــيرة) الصغيرة.

(3)

اليوم جمعة، وأيام الجمعة في البلد لها طَعمٌ دخاني في الحَلْق، تتخللـــه روائح الطبيخ البائت من الخميس. الخميس سوق البلد واليوم القـــرويّ للتقليّة والفطير واللحمة. هروباً من الصلاة واستكمالاً لرحلات الصيد، خرجنا أنا وأشرف من الضحى نبتغي رزقنا السمكيّ. هيئتنا لا تـــتغير، حافيان، متسخان، ذاهلانِ. نطارد كل شيء حتى إننا نطارد أنفســـنا.

مددنا أقدامنا أمامنا على جانب المصْرف تحت شجر الصفصاف. معنا رغيفان شمسيّان محشوان بالمِشّ والجبن القديم، وزمزميّة ماء مغلَّفة بقطعة من الخيش، من صنع يدي. نأكل ونشرب ونصطاد ونشمُّ هواء، والأهمّ؛ هربنا من صلاة الجمعة ومن خطبة الشيخ (محمود أبي علم الدين) التي تسبب نومنا في الجامع واستمرار حالة النوم لأيام بعدها.

سمكة خضراء مذهَّبة تقود سرب أسماك حمراء، سمكتا بلُطي (مشْط) تروحان وتجيئان، طوابير من (القُرْقار) كأنها في عرض عسكري، كل هذا وأكثر أمام عيوننا تحت سطح الماء ولا نستطيع صيد واحدة تكفي لمنحنا شعور المحارب المنتصر الذي نسعى إليه. أنا زهقت زهقت. قال أشرف وهو يهز رأسه بإشارة غير ذات معنى. لو عاوز تروّح.. روّح، أنا قاعد هنا لحد العصر. قلت في عناد وأنا أعرف أنه لن يعود وحده. دقائق وبدأتْ حركة الغمز تأخذ مساراً مختلفاً، فكما يبدو هناك مجاعة بين سمك المصرف. سمكة كبيرة، سمكتان، وبعدها حلّ النحس فما ألقينا مرة إلا واشتبك السنّار بالأعشاب تحت الماء. بدأ الملل يصيبني كما أصاب رفيقي، وبدأت أفكر في العودة حقاً. وإذا بظل طويل يمتدّ على سطح الماء من الناحية الأخرى من المصرف، رفعنا عيوننا معاً لنرى، ربّما بلّلنا سروالينا حين رأيناه وقتها، (عبد العال أبو بلطة) يقف على الناحية الأخرى ومعه كلبه الأسود اللاهث. كان يبتسم ويرمقنا باهتمام

وهدوء بينما نقبع نحن في مكاننا لا نحرك ساكناً. وقت كأنه الدهر مر علينا قبل أن يتحرك هو وكلبه سائرينِ، تابعناهما ونيّتنا أن ننطلق بمجرد أن يبتعدا قليلاً، ولكن المجذوب وكلبه عبرا الجسر الصغير المجاور لنا، المكوَّن من جذع نخلة مشقوق نصفين على المصرف، ليصبح بناحيتنا، خطوات قليلة ووجدناه فوق رأسينا. تخيّلتُه وهو يقف وراءنا ويسحب بلطته ثم يهوي به على رأسينا، تُرى أي رأس سيختاره أولاً لكنه جلس بجوارنا في هدوء، وكذا فعل كلبه.

(4)

أخرس، حافٍ، طويل، يرتدي معطفاً قديماً لا لون له، تحت المعطف ملابس لا يستطيع أحد تحديد نوعها أو لونها، تبرز من تحت المعطف يدٌ خشبية لبلطته. حسب الحكايات؛ كان يعمل في تقليم النخل وجنْيه، يربَي كلباً أسود، ويعول امرأة جميلة. يتحدث الجميع في نطاق الخاصة – إذا أتى ذكره – بحكايته، يقولون كان عاقلاً وهل هناك من يولد مجذوباً يا قوم!. يقولون سرق ثم سُجن ثم جن وذهب صوته. أحياناً يشيرون همساً لشخصا ما، (السيّد أبو هارون) أخو العمدة، يقولون عشق امرأة المجذوب وعشقته، ولما ضبطه المجذوب وكال له في جنبيه ضرباً، دبر له (السيد) سرقة وحبساً، فطابت له امرأة المجذوب في بيتها

الخالي. أمّا كلبه فقد هجر البيت بعد خروج سيده المجذوب من قسم الشرطة بالمركز، وارتضى حياته في البراري مع سيده، يأكلان ويشربان وينامان حسبما يشاءان. لا يتحدث معه أحد، لا إشاراة ولا قولاً، وابتعد عن الناس مفضلاً الكلب على ابن آدم.

(5)

طال صمتنا وثباتنا، نحن الصيادينِ الصغيرينِ، حتى السمك فضَّل أن يظل معلّقاً في مكانه ليكمل ثبات المشهد. فجأةً تكلم الأخرس! كان يجلس جوارنا بينما يمدّ قدميه النحاسيتين في ماء المصرف. صوتٌ عميقٌ هادئٌ، صوتٌ إن أراد أحداً أن يأتي بمثال على صوت رجوليّ خالص، لكان صوته: إيه اللي جايبكم في الحتة المقطوعة دي عَ تصيدوا وروني صدتوا قد إيه، انت ولد مين أه انت ولد أحمد ..أبوك لسه مسافر ؟ وانت ولد مين.. ولد جابر البيّاض أبوك الجحش هو اللي راكبه مش هو اللي راكب الجحش.

لم يكن خوفاً ما بي، وإن كنت لا أدري ما أصاب أشرف فقد تصلَّب جسده بشدة فأصبح تمثالاً لصيّاد صغير. كان ذهولي وفضولي ما يدفعني لعدم الارتجاف بحضرة المجذوب، الأخرس الذي يتكلم، المجذوب

الذي يعرف أبي؛ أبي الذي لا أعرفه. داعب كلبه يكاد يحضنه، وهو يكمل بنفس نبرة الصوت المطمئن: ده عنتر سلِّم عليهم يا عنتر. العيال دي مش من هناك. ماذا يقصد بقوله إننا لسنا من هناك، أيّ هناك ! أغرب ما يحدث أن نطمئن له ويطمئن لنا، لن يؤذينا، كيف يؤذينا، إنه مجذوب فاقد العقل في بلد رجالها لم يمنحهم عقلُهم غير القسوة. قال: قوموا روّحوا تلقاهم في البيت قلقانين عليكم قوموا قوموا يا شيخ منك ليه بلا صيد يعني انتوا هتجيبولهم العشا. ثم ضحك، صافياً من كلّ همّ. تجرّأت وتحدثت لأول مرة: لا، أصلا محدش عَ يسألنا رايحين فين ولا جايين منين. أضاف أشرف الذي فكّ الله جبْسَه: صح. إحنا كل يوم عَ نجي هنا عشان نصيد. عينا المجذوب أعقل عينين رأيتهما، وهو ينظر لنا وكأنه تفهّم طفوليّتنا: طَبْ ورُّوني صِدتوا قد ايه. أظهرت له بفخرٍ صفيحة قديمة بها ماء وبها ما اصطدناه قبل حضوره، أمسكها من يدي ونظر فيها وبدتْ عليه سعادة، شاركتُه فيها وأنا أكمل: على فكرة ده كمان مش موسم سمك. ضحك ثانية وقال: آه أيوه أُمال إيه تمام تمام. رجعنا نصطاد وعبد العال وكلبه معنا دون خوف، فرِحين – أنا وأشرف – أن خصّنا وحدنا بسره الكبير، بأنه يتكلم وليس أخرس كما يردد أهل البلد. خرجت سمكة فوجدناه يقفز طفلا ويهتف: أنا اسلّكها أنا اسلّكها. ألقيت بالخيط ناحيته وتركته يمسك السمكة الصغيرة ويخرج السنَّار من فمها. أراد أن

يضعها بالصفيحة، فأشرت له بأنها صغيرة ونحن نرمي مثلها للماء مـــرة أخرى، فابتسم ونادى: عنتر هزّ الكلب ذيله واقترب منـــه في محبـــة، فأطعمه السمكة بيده ومسح على رأسه وقال دون أن ينظر لنا: عشـــان السمكة الصغيرة ماتقعدش تحايركم في الصيد، وعنتر جعان ماكلش من امبارح. أخذتنا الحماسة فأصبحنا نصطاد فقط من أجل أسنان عنتـــر. وبرق في عقلي أن أقول له وأنا أناوله عصا السنارة عارضاً عليه الصيد: تاخد تصيد. لكنه اغتمّ فجأةً وصارت عيناه أكثر ســـواداً، ووجـــدناه يقول: لا لا لا لا مكررا لا كثيراً، ثم قام وهو يشير لنا: قومـــوا روّحوا قوموا. ومشى بسرعة وكلبه وراءه حتى غابا عن نظرنا بـــين أغصان الصفصاف.

وخامِسهم

(1)

أصبح (عبد العال) سرَّنا الصغير، ولأيام نذهب لـــنفس المكـــان ولا يظهر المجذوب وكلبه. ثم أتى مثل المرة السابقة من الناحية الأخرى ذات يوم، واصطدنا لعنتر، وأخذ المجذوب يحدثنا منطلقاً، غير مرتب كلامـــه عن أمور شتى لا نفهم منه شيئا ولكن نهز رؤوسنا فـــرحين مبتســـمين مطمئنين، و لم نسأله عن شيء و لم يسألنا عن شيء. نـــذهب ونجـــيء بسمكٍ قليل وحديث كثير مع عبد العال، يؤثِرُنا على الخلـــق أجمعـــين فيمنحنا حكاياته. يقول صرع ذئباً فينبح الكلب فيضيف وكان عنتـــر معي. يقول سافر إلى مصر وركب القطار، وضرب عســـكريّاً أراد أن يفتَشَه. يعطينا مخزوناً من الخيال يكفينا لقضاء ليلنا الفارغ الطويـــل في حواديت طفولية. أرانا عجيبة أخرى، بلطته المشهورة لم تكن بلطة، بل مجرد يد خشبية لبلطة غير موجودة، كان يرفعها أمام وجهينا ويضحك ونحن في دهشتنا. أخرس يتحدث. أبو بلطة لا يحمل بلطة.

مرة بعد مرة، صار يعرف اسمينا، وينتظرنا، يسرق كل واحـــد منـــا رغيفاً من البيت مع قطعة جبن قديم، وأحيانا يكون مع الرغيف غموس

مختلف. كان يفرحنا أن يفرح وهو يتسلَّم كيساً من كلٍّ مناً، طعاما لـــه ولكلبه، أو كلبنا كما صار. وكثيراً ما كان يقول بلهجة متسارعة: ليه أمك تضربك يا اخي متعملش كده تاني أنا عندي أكل. عندك من أين يا عبد العال وأنت نادراً ما يعطف عليك أحـــدهم فيمنحـــك كسرة بلا غموس، وقد يجود عليك البعض في الأعياد وأنت تقف بـــين المقابر دون كلام، فيعطونك كعكاً يابساً وفاكهة قليلة.

كان يستمع لحكاياتنا في جذل وتلمع عيناه ويضحك وهو يشـــارك في الحديث فيسبّ أحداً في الحكاية أو ذاكراً عنه حكايـــة مـــأثورة، أو يُأمِّن على كلامنا بقوله:آه أيوه أيوه. صح. تمام تمام كان يصـــدِّق خيالنا بل ويستدعيه وينميه.

أرادت الحوائط أن تسدّ آذانها، فقالت للصيف هاتِ مـــن أتربتـــك واعصف عليّ. فلمّا عصف، جاء وسط الريح كلامٌ، لمّا سمعته الحـــوائط صمَّتْ، لا من التراب، بل من هول ما سمعتْ.

(2)

أخي الأكبر الذي لا يهتم لغيابي ولا يزور بيتنا، يهتم الآن لغيابي عن بيتنا ويزورنا ليحذرني منذراً بالضرب. أما أشرف ففي كل الأحوال هو مضروب مضروب. عبد العال أبو بلطة يشدنا لعالمه، يحكي ونحن نجمع الخيوط فننسج الحكاية، نختلف معاً في سردها وفي تذكُّرها. كثيراً ما يتحدث بحديث غير مفهوم، مشوحّاً بذراعيه في الهواء منذراً بالعقاب لأشخاص لا نعرفهم، أحيانا يحددها في شخصين يبرزان في خطابه لمثنى خيانةٍ. وكان أحياناً يبكي، بكاء قصيراً متقطعا مرتجفاً ثم يعود لما كان عليه قبل البكاء، وصرنا نعرف الحكاية. زارنا أخي و أختي يوم خميسٍ، فحكيت على طبليّة الخميس لأمي ولهما ما جمعته مع صاحبي من حكاية عبد العال، ذكرت أنه يتحدث وليس أخرس، وأنه لا يحمل بلطة، فلاقيت سباباً من أخي ونعتاً بالكذب، وإنذارا من أمي بعدم مغادرة البيت لأي مكان بعد ذلك، بينما ضحكت أختي وقالت أن عليّ أن أستحمَّ فقد أصبحت أشبه عبد العال من قلة الاستحمام. حكى أشرف أيضاً الحكاية لأبيه متزلِّفاً متقربا منه، ربما يمنحه ابتسامة أو يصدقّه فيظن أنه كبر وأصبح رجلاً وعليه أن يكفّ عن ضربه، فضربه أبوه، وأوعده بأن يربطه في رِجْل الدِّكَّة مثل الكلب.

لما أراد الصيف أن يذهب لبلد آخر حتى يجعل فيها ما جعل بالبلد، قال إني آنستُ ناراً فدعوني أذهب لأرى، وأعود لكم بقبس. فلنْ أتركَنَّكُم بلا أثرٍ منَي. فذهب

البارد الممطر الدامي

دقّ الشتاء بعصاه على الأبواب، في هيئة طفل هزيل ضـــعيف، قـــال: حسنة لله! فردّ الناس: اذهب، الله يسهل لك. كرر دقّه ولّما لم يجبْه أحد انصرف. لكنه عاد بعد حين على رأس جيشه الخاص.

(1)

انقطعنا عن الصيد وعن صاحبنا وكلبه. تغيّر الفصل وأتى فصل ذو ليل طويل و نهار قصير. البلد لها فصلان فقط يتناوبان الحكم فيها. مع إشارات قدوم الفصل الجديد، تكاثرتْ حكايات جديدة وأنجبتْ حكاياتٍ كبرت بدورها و تكاثرت. محتملٌ أن يكون الأمر حدث هكذا: حكى أخي لقرنائه في المقهى، وحكى أبو أشرف لكل بيت في جولته اليومية لجمع البيض، فخرجت الحكاية من أفواه كثيرة مزخرفة بتفاصيل إضافية، تختلف حسب خيال الراوي. طفلان يحكيان عن أخرس يتكلم، ومجذوب يجالسانه في طمأنينة، وحكاية يعرفونها ويوصدون عليها أبواب غرفهم الخاصة. انتقلت الحكاية من مندَرة لمندرة، ومن دوّار لدوّار، ومن مصطبة لمصطبة. أعلنت الحكاية تمردها على الألسنة.

منعنا الشديدُ القويّ عنه، فكأنه توجّع بفقد جليسيه الصغيرين، بعد أن جرّب الرجوع للكلام. نزل عبد العال إلى البلد وأخذ يطوف في شوارعها بحثاً عن شيءٍ لا يعرفه. فلمّا لم يجده، أخرج لسانه للجميع في

البلد وتكلم أمام كل جمعٍ يقابله في الشوارع. ثم نبح الكلب عند ديـــار آل (هارون)، فقذفه عيّلٌ من عيالهم بالطوب، فسبّه أبو بلطة وســـبّ أباه وأمه إلى آخر جَدٍّ ممكن، ولّما وجد في نفسه القدرة على الوقوف مع كلبه هناك، كرر فعلته كلما مرّ قريباً من بيوتهم، يقف يســـبّ وكلبـــه ينبح، متوعدينِ بسوء العاقبة للسيد أبي هارون وباقي سِلْسَاله

قال الدم للماء والتراب: أنا أخوكما، فإن اجتمعنا صـــرنا حليبـــاً. فاجتمع الماء والتراب من ورائه ودبرا له المكيدة، وغـــاض الحليـــب في ضرع الأرض.

(2)

الشتاء يعض يا شيخ مكيّ، وأنت في ضريحك تحت قبَّتك الخضراء لا تدري شيئاً عن الراقد على بابك. من أقام رُفاتك وسط المقابر وبنى لك بناء لتصبح وليّا، وأنت لا تسمع أنين روح هائمة تحتمي بحماك! هل شهدت ما حدث فاكتشفت حقيقة موتك، أم أدرت وجهك وبسملت وحوقلت وانتظرتَ نسوةً يحملْن أطفالهن ويطلبن منك شفاءهم، ويقدمن لك النذور.

كان المطر، وتلاهُ وحلٌ وحُفرٌ في وجه المكان. استطلع الصبح، فوجد أنه من الملائم أن يتأخر قليلاً، فجاءت شمسٌ كاذبة، ولم تصْدُقْ إلا قبل غروبها. هرْول ترابٌ قليلٌ من ناحية المقابر غرباً باتجاه البلد، فجاوبه ترابٌ كثيف قادمٌ من البلد باتجاه المقابر، ذهب الخبر صغيراً للشرق، فعاد حكاية كاملة مع الجموع الزاحفة غرباً لترى القتيل. عائداً من مدرسة أتعلم فيها احتمال الضرب وجدولتَه على الجسد، كنتُ، وكانت إحدى ضلفتي الباب مفتوحة فشاهدت من يمدّ الخطو في الطريق ووراءه آخر وآخر وآخر. خرجتُ أسأل فأجابني أحدهم، سمعتُ وأنا أخلع جوراباً

تظهر منه رؤوس أصابعي، فأحجمت عن خلعه وخرجت أجري بجورب نصف مخلوع. شدّتني أمي فطار من قميصي زرّان على الأقل، ولكنني وصلت هناك بما يحملني من شعور لا أعرف تركيبته. أتيتُه حافيًا كما لاقيته عن قرب أول مرة جوار المزاير، وكما عهدني أيام صيدنا في المصرف. جلابيب وعِمم كثيفة، اخترقتُها لأجد جسداً مسجّى يغطيه قماش أبيض عليه كتابة بالأسود والأحمر، قماش انتخابات، وحديث يدور، كفوفٌ تقرع كفوفٌ باستغراب مصطنع، أفواه تطلب الرحمة، وقلوب تتعطش للدم. كان سلامة أبو طالب، الخفير، يقف عند رأس القتيل منتصباً في فخر لاكتشافه الجثة. قيل قُتِل المجذوب. وحضر ضابط النقطة، هو والليل معاً، ففضّا الجمهور إلى مضاجعهم. بقى القتيل تحت حراسةٍ لظهر اليوم التالي. أتى وكيل نيابة وطبيب وضابط النقطة. خرجت التصاريح بسرعة، فدُفن القتيل مكفّناً بقماش الانتخابات وملابسه الغارقة في الدماء. وانتهت التحقيقات كما لو لم تبدأ، وقُيِّدتْ القضية ضد مجهول.

أيها المجهول؛ لِمَ فعلت ما فعلت؟! بالبلطة قتلتَه، و لم تكن له بلطة، أعرف ذلك ويعرفه غيري، طعنته في الظهر، ولما دار ليواجهك رشقت الحديد في رأسه، هل قتلتَه بجزء من اسمه،(أبو بلطة)،ألم يكن هذا لقباً؟ لم يكن لقباً بل كان نبوءة موتٍ. ماذا قال لك في آخر كلامه، هل قال

كالمعتاد: آه ..أيوه تمام تمام ! هل رأيت عينيه أيها المجهول قبل أن تنطفئا. وأين كلبه، ماذا فعلت به، هل دسست له السمّ قبلها، أم طعنته قبله ؟!

أيام قليلة، والبرد يحاول طرد الذكرى دون أن يفلح. من قال أن حزن الصغار صغير مثلهم. النوم برزخ صالح يزورني فيه المجذوب، مرة ضاحكا و أخرى باكياً، و مرةً يظهر مع كلبه و أخرى دونه. الكلب الذي اختفى منذ يوم الحادثة قرر الخروج من البرزخ فظهر. عنتر كلب المجذوب، شاهده البعض يجري في البراري فزعا من بني الإنسان. ماذا شاهد ذلك التعس ليرتعب كل هذا الرعب؟ ثم ظهر في البلد، أعرج، مصاباً في قائمه الأمامي، دار دورة ووقف ينبح على بيوت آل هارون، يفهم الجميع أنه ينبح متَّهما إياهم بقتل سيده. يفهم الكل لغة الكلب، ها هو الكلب ينطق ما تفهمون أيها الناس، تنتظرون معجزة أخرى ؟! فإلامَ تصمتون؟

ثم جاءت ليلة قاتمة، تُصرْصِر بصوت الثعابين، فقطع هسيس الليل طلْقٌ ناريٌّ صائب، قالت أمي وهي تطلب الستر من الله: ده عيار صايب أؤمن بأمي وأؤمن بقدرتها على التمييز بين العيارات الصائبة وغير الصائبة من الصوت. لم يعرف أحد ما حدث حتى الصباح. في

العصر بعد رجوعي من المعتقل الدراسي عرفتُ أنهم وجـــدوا كلـــب المجذوب مقتولاً بطلق ناريّ في رأسه، لماذا الرأس دائمـــا ؟! في طريـــق الحاجر كانت جثته، لم يجرؤ أحد على زحزحتها كأنها جثـــة آدمـــيٍّ، فتكفّلت أنا ورفيقي أشرف بدفنها على مرأى ومســـمع مـــن المـــارّين بالطريق. حفرنا حفرة جوار حوض المزاير بنفس المكان الـــذي ظننـــاه خرج من الأرض عفريتاً فيه، واوريناه التراب.

فصولٌ تنقصها التفاصيل

رأيتُ قطاراً يجري ورأسه مفلوقٌ، مرشوق ببلطة، ولّما اخترق المقابر اشتعل جسده. رأيت طائر رخَ يلقي ناراً على رجلٍ يشبهني، ورأيت ساعديّ وقدمي مبتورتان وأنا ألفهما بعضديّ في شال أمي، ورأيت وجهي قطعة من اللحم بلا تفاصيل. كلّ هذا بالترتيب.

(1)

كبرنا. كبرنا فجأة. كبرتُ وأنا أسهد لدمع أمي، كبرت و لم يعُدْ أبي، قالت لي: أنت ابنه الذي لم يره. أريد أن يحضر ليراك. قلت يا أماه سيحضر. لكنه أخلف الوعد. قالوا منذ زمن أنه تزوّج بالعراق، منذ العام الأول بعد سفره الثاني، تركنا ، وانشغل بامرأة لا نعرفها. تزوّج أخي، و لم يحضر أبي تزوّجت أختي، و لم يحضر أبي.

عاد أبو ثروت من الكويت، بعد أن انهار جدارٌ من جدران البيت الطيني القديم على عائلته وهم نيام. ثروت وأخته وأمه خرجوا من تحت الأنقاض مدثَّرين بالتراب، وإلى التراب عادوا. الرجل، أبو ثروت، اعتزل الناس بعد عودته والتزم بالمسجد ليل نهار، أطلق لحيتَه وأمسك مسبحة. الرجل حلق لحيته و لم يترك مسبحته وكان أول من يبيع البيرة في البلد. الرجل يصلّي ويبيع الزجاجات الخضراء. لهذا؛ خِفتُ أن يكذب علي حين أسأله عن أبي، وقد عرفتُ أن العراق تجاور الكويت.

(2)

صرتُ أمضغ الحياة وتمضغني، فلا يحسّ أحدنا طعماً للآخر. دخلت الجامعة، وتخلَّف عني أشرف واكتفى بدبلوم التجارة، لم يسمح له أبوه بأكثر من هذا. أمي هي والداي، أطعمتْ وربَّتْ، سقتْ حناناً وقوَّمت اعوجاجاً. تطيِّبني كلما أصابني هواء البلد بالفساد. نذرت نفسي لها، وقلت إن أعطاني الله عمراً، أفنيتُه فيما يكفي لأن تبتسم.

الجامعةُ يا أمي معتقلٌ آخر. ظننتُ في البداية أنني سأغرِق نفسي في مجالها فتتفتح وردة العقل، لكنني غرقت في مستنقعاتها وآثرتُ للوردة أن تتفتح خارجها، فلم تعجب المعادلة أساتذتي ولا الضباط. نبذني المعلمون من قاعات الدرس، واستضافني ذوو الأزياء المزركشة بالنسور و النجوم في بيتهم البارد. دثّريني.

(3)

فضلّتُ قضاء بقية العام بين يدي أمي. وكان عيدٌ يقتربُ، أبيض يدنو من الأسود المحيط، فقلتُ يكفيني غياباً، ولأكنْ مع أمي قبل العيد، وربما زيارة لأخي وأختي تصلح ما أفسد الدهر بيننا، وإن الدهر لبريء مما بيننا

من فساد. وقلتُ أرى أشرف فإجازته قبل العيد كما أخبرني آخر مرة، قلت له وقتها أريد أن نخرج للصيد، سنّارتان ولا حاجـــة للزمزميّـــة، فالشتاء يملأ الجسد بكثير من الماء. فضحك و قال: جسدي نحـــاس في صحراء الجيش يا صاحبي.

قلت لأمي: العيد عيدكِ يا أم، ولن أتركِ حتى ترتدي لونـــاً غـــير الأسود. قالت: لأخبِزن لك كعكاً يا طفلي، منذ متى لم تذقه من يدي. ضحكتُ وقلتُ: ضحكتك هي خبزي وفاكهتي اللذانِ أشتهيهما. نمتُ عصراً، وأنا أشمُ رائحة شالِها تعبِّقُ العجين بالزعفران والحليـــب، ولّمـــا مسَّتْ النار العجين، ذهبتُ أنا بعد اليقظة بقليل، فرأيتُ ما رأيتُ.

(4)

لستُ نائماً يا أمي. الكابوس ماثلٌ في يقظتي حين أغلق عيني، أحـــس حركتك وأنت تجيئين وتروحين في الغرفة، هل خبزتِ لي الكعـــك؟ إن كنتِ تريدين أن توقظيني، فأنا بالفعل أنتظر يدك لكي تهزّني بحنانـــك، فلماذا إذن أشم رائحة الكعك مخلوطة بتردُّدك، وبرائحة دمعك ؟

وجدتُني أنهض مشوش الذهن، كذا يفعل نوم العصاري. دخلتُ على أمي عند الفرن، فوجدتها تضع رأسها بين يديها وتبكي، رفعتُ وجهها وأنا أبكي معها: أما كفانا ؟ صمتت وكفتْ عن البكاء بجهد لاحظتُـــه، فسألتها: أين كعكي، أم احترق منكِ بعد أن نسيتِ خبيزه لســـنوات. ابتسمت بصعوبة وأشارت لصينيّة الطعام الكبيرة التي رصّـــت عليهـــا كعكاً ساخناً ليبردَ. خطفتُ اثنتين وقلتُ لها: أنا خـــارجٌ، واحـــدة لي وواحدة لأشرف أبي جابر، أحسبه حضر في إجازة من الجيش، وهـــو يحب الكعك مثلي. وجدتُ أمي تنهض و تشدني من كتفي، ثم تحتضنني وهي تهتزّ بكاء، دون أن تريني وجهها. أشفقت عليها كيف كانت تريد إخباري بالأمر بطريقتها.

كيف يا أشرف ؟! اشرح لي وأعِدْك أنني سأفهم أسبابك، عشـــرون صيفاً صَقلوك ولّعوا سُمْرَتَك، كيف سلّمت جسدك لنار هذا الشـــتاء؟ كيف تقرفص هكذا في ردائك الأبيض على خشبة يحملها مجهولـــون؟! كيف تغيّر خطتنا وتسبق وحدك، قلت ستأتي بالقطار، فلم أتيت بعربة الموتى؟! قالوا لا تفعل بنفسك هكذا، كلنا سنموت. فحمَّلتُ رأسي التراب وقلت إلاّ أشرف. على جلستك متّ يا أشرف! ألم تجد وقتـــاً للقفز، وأنت الذي كان يقفز من فوق ارتفاع الكوبري غائصاً في مـــاء الترعة، وتظل بالماء حتى أنادي عليك فتخرج مبتهجاً لقـــدرتك علـــى

فعلها، أم أن القفز من النيران لا يشبه القفز للماء يا صـــاحبي ! قالـــت أمي: إن القطار لعنة، حديدٌ يأخذ الأحبة، وإن عادوا؛ يعودوا على غير ما ذهبوا، وها هو يقتل من يعود. بكى أبو أشرف فاحتضنتُه ولأول مرة أجده يصلح كأب. أما كان من الأجدى أن تمنحه قليلاً من عطفك في حياته يا عمّ؟! عربات الإسعاف توزع ضحايا النار على أهلهم بالمقابر، وكأنهم كعك العيد المحروق.

(5)

بأيةِ حال عدت يا عيدُ. ظلّ الأسود رداء أمـــي و إن زاد كثافـــة. ولزمت أنا عزلة أرى نصف كابوسي يتحقق وأنتظر نصفه الآخر.

(6)

عامٌ وشهرٌ وأيام قليلة بعد رحيله، وأشرف يصطاد فَراشـــاً ودبـــابير وسمكاً، ويجني نبَقاً بيديه، ولا يفارقني كلما أصابني النوم. امتد الســـواد ليصيب جسد أمي بعد أن كان لون ثوبها، وصرت ألازمها وهي تشـــدّ على قلبي بوصاياها، و لم أفهم انقطعتُ عن الجامعـــة، ورأيـــتُ أنْ لا فائدة تُرجى من ذهابي لوراء أسوارها. الحرب هناك يا ولدي. تقول لي وهي تبكي. أبوك هناك يا ولدي. فأقول: يا أمي؛ سبقتْ هذه الحـــرب حربٌ أخرى و كان أبي هناك. فلا ينقطع بكاؤها. تتوجعُ: يا ضَـــناي منْ لكَ بعدي. فأبكي حتى تنام, وأبكي بعد أن تنام.

زارنا أخي وأختي واجمينِ، ظننتهما لعيادة أمي، من هـــي في مقـــام أمهما. جاءا، قال أخي بلهجة الراديو: قامت الحرب في العراق منذ أيام. فارتجفت أمي وهي تهزّ رأسها بأنها تعرف. أضاف وهو يُخْرج ورقة ما، ويمدّها لي، دون أن يتذكّر أن لحمه من أبينا: أبوك مات في الحرب.

أمي لم تعد تنطق، بعد أن لطمتُ أخي على وجهه، وبكـــتْ أختـــي قليلاً, ربما لم تبكِ، ثم غادرتْ. شتمتُ أخي دون أن أبكي وهو يغادر.

ثم جلست بجوار أمي نبكي معاً. ما أقسى دمعة ذاهل. هل كنت تنتظرينه يا أم ؟! بعد كل هذا أأبكيه أنا وأنا لم أره و لم يرَني إلا لأيامٍ لا تكفي لمنحه صفة الأب! إنني أبكيه يا أم، ولكن لا تبكيه أنتِ فما فعله بك لا يبقي بقلبك أي أثر طيب لذكراه. لكنها لا تتكلم. ذاهلاً حملتُها حتى المستشفى، حيناً على كتفي، وحيناً في سيارة أجرة، من مستشفى لمستشفى، قالوا لي: دعها في سريرها في بيتكم لا فائدة. إلا أنتِ لم يعد هناك أحد، وإن كان هناك، فلا يساوي ذرة تراب مما مشيتِ عليهِ. خذني أنا أيها الموت، أنا فيٌّ فجرِّب معي قوتك، وأعدك أن أتركك تأخذني بلا أدنى مقاومة، أو سأقاومك كي أُرضي غرورك، أو حسبما تشاء مني خذني. فقط اتركها وخذني إن كنت مكلَّفا بروحٍ فأرجئ ميعادك قليلاً، حتى تفطمني على موتي. ولكنه لم ينتظر كانت تمسك يدي وهي تحدثني بعينيها. هذه الحياة لعبة. قالت. أنت ولد طيب، فعِش في سلام. قالت. أخوك وأختك. قالت. تزوّج فأنت تحتاج امرأة بعدي ترتَبكَ. قالت. زرني إن استطعت، فإن لم تستطع فتذكّرني، وإن لم تستطع فابتسم لكل أم، وهذا كل البِر. قالت. ثم سكتت وابتسمتْ وتركتْ يدي.

آواخر

(كل الأسر السعيدة متشابهة، أمّا الأسر التعيسة فلكـــل منـــها قصـــتها المختلفة، وتعاستها الخاصة المميزة) تولستوي

(1)

إنها المرة الخامسة، الخامسة ! قالها مُحصِّل الأتوبيس وهـــو ينظـــر لي مستنكراً. قلتُ: هل هناك مانع أن أدفع التذكرة وأذهب وأجيء؟! إنه يخشى مسؤولية ما، ينظر لي في نهاية الخط كل مرة ويقول: إحنا داخلين الجراج يا أستاذ. فأردُّ دون أن أرفع عيني وأنا أسند رأسي على الكرسي المواجه: هاطلع معاكم تاني. المُحصِّل يخشى نهاية فترة عمله، وهذا المجنون يلازمه هو والسائق. الركّاب يطلعون ويترلون ويختلفون، والجالس كما هو لا يغير مقعده، إنه لا ينام، أشعث أغبر الهيئة. قال متلطِّفاً: من أيـــن أنت و أين تذهب فقلت:

اسمي داوود، جئت من بلدٍ بعيدة في الجنوب تسمّي نفســـها (بيت داوود). أمي أسمتْني داوود تيمّناً باسم الرجل الـــذي دقّ أول وتدٍ لخيمةٍ بالبلد، وقالت هي بلدك و بيتك، فلم تعد بلدي و لا بيتي. إلى لا مكان أذهب.

(2)

كم شهراً مر يا أمي؟ كم شهراً يا أشرف؟ كم شهراً يا أبي؟! أجيبوني. أقارن الشهر بمدة الرحلة التي يقطعها الأتوبيس داخل العاصمة، من منطقة شعبية في أقصاها إلى منطقة شعبية أخرى في الجانب الآخر، فيسقط إدراكي بالزمن. هل فاتت الشهور شهوراً أم تشعَّبتْ في جسدي مرضاً إثر مرض، ونحرتْني في عبورها على روحي.

أية مدينة قصدتُ، لا يهمّ. كل البلاد سواسية. لكلّ مدينةٍ غريبٌ وليس لكل غريب مدينة. ولكن المدينة ليستْ (بيت داوود) و أيضاً (بيت داوود) ليستْ المدينة. وبغداد ليستْ المدينة هنا ولا (بيت داوود). لماذا لا تأخذني المدينة مثل أبنائها. اعتبريني يا مدينة أي شيءٍ في تفصيلاتك الغزيرة، خذيني شجرةً، حجراً، مدخنة، قطّاً أو كلباً. اعرفيني لمرة واحدة، فما أقسى أن تنكريني.

كمْ شهراً يا أمي؟ كم شهراً يا أشرف؟ كم شهراً يا أبي ؟! أيهذا الأخير؛ أبي، فسر لي ما يحدث. منذ شهرين، رجعت للبلد، فقابلني أخي وقال لي هذا، اسمع يا أبي لعلك تعرف، قال أن أحداً جاء إليه وقال له

أنه أخوه، ابنُك يقصد، وأخي يقصد، وقال أن القادم أخبره أنك مـــتّ مع أمّه معاً تحت القصفِ الثقيل، أخونا العراقيّ الذي أنجبته، كيف ترَى أنت، أيةِ هُويةٍ يمتلك؟ فأنت لديك، أقصد كان لديك، الهويّتـــان؛ وأمُّ ابنك هناك عراقيّة، أمُّ أخي ! قال أخي في البلد أنه طـــرده مســـتنكراً حضوره، ونعته بالكذب والنصب، هل أقتل أخي الكبير ! ها أنا يا أبُ أرحلُ وراء الغريب الذي جاء ربما بحثاً عنّي بالذات، عن روحكَ فيـــه، أرحلُ وأنا أملأ نفسي بأخٍ لم يرَني و لم أره. كنت أصدقه قبـــل أن أراه. سألت في كل الدوائر المختصّة، مرة واثنتين، حـــتى حفـــظ الموظفـــون وجهي و لم يعد مرحَّباً بي في كل مكان أكرر ســـؤالي فيـــه، لجـــأت للخارجية والداخلية و لم يعطني أحد إشارة بوجود أخي هذا على أرض مصر أو على قيد الحياة. أريد إشارة، أريد العلامة، و لم يعطـــني أحـــد إياها. هل عاد للعراق، ما اسمه، أخي الكبير لا يذكر اسم أخيه الـــذي أتاه من العراق ! ما شكله يا تُرى، أتراه يبتسم دون داعٍ مثلك يا أبي في صورتك على حائط البيت القديم ؟!، كم عمره ؟، بالتأكيد أصغر منّي. ها هو أنا الطفل يأتي من العراق بأمنيّة أن يجدَني. لهجتُـــه، أجنوبيـــةٌ أم عراقيّة ؟! هلا دللتني عليك أيها القادم من النخيل، أنا مثلك قادم مـــن النخيل، هل عرفت بأمري، فانتظرتني في مكان ما، أم أصابنا التيـــهُ في صحراء تلك البلاد، وحال بيننا مـــا حـــال. وانتـــهت بي في مقعـــدٍ بالأتوبيس، ذهاباً إياباً، بلا جدوى.

بعدَ أنْ

ما أعزّكَ وأصعبك أيها النسيان. ألا تزورني مرةً فنشرب معاً كأســاً. جسدي معبَّقٌ بالكحول والسجائر، والليل وحشي ينهش العقــل، ولا صيف بالمدينة. لا صيف ولا شتاء. لا ربيع ولا خريف. الفصل فصــل واحدٌ مجهول الوجه، كثير الأقنعة. الناس آليُّون هبطــوا مــن جهــة لا تخصَّني. أعيش ولا أعيش بمنطقة شعبية، أخشــى أن يــذكِّرني الفعــلُ "أعيش بأنني لا زلتُ حيّاً. أهبط آخر الليل إلى غرفة خاوية إلاّ مــن كتب وسرير وزجاجات ومطفأة سجائر. صاحبة البيت لا تعرف اسمي ولا من أين أتيتُ. أهل المنطقة والشارع الذي أسكن فيه أمثِّل لهم لغــزاً ومشهداً يصلح للفُرجــة في خروجــي ودخــولي، لا يعرفــونني و لا يسألونني:ما اسمك يا غريب و من أين أتيت. مثلما سألني محصِّل التذاكر في الأتوبيس.

هذه الليلة لا أذكر أي فصل أنا فيه الآن، يبدو من أردية الناس أنــه الصيف، كيف أنت يا صيف؟ هل تذكرني ؟ منذ متى وأنت تدور وأنا أدور فلا نعرف بعضنا؟ أنا هو حدِّق قليلاً بوجهي ربمــا أبصــرتَ خلف سواد عيني وزرقة شفتيّ طفلاً كنت تداعبه قديماً. حدِّق بقلــبي، والمس شحوبي بأطراف أصابعك، ربما رأيت ما فعله الغياب.

أسيرُ والمكان غير مُدْرجٍ باهتماماتي. فقط أسير. أظـــنني في طريقـــي للبيت، لِمَ قلت البيت هنا ؟! و أي بيت؟! لا أعرف ولكنني أظن أنني في طريقي للبيت

(.....)

قبل الفجر، وأنا لم أعد أصدِّق الفجر. فليكن قبله أو بعده، ماذا يهمّ. الشوارع زرقاء كأنما مرّتْ براكين في ممراتها وأبْقتْ ما أبْقتْ من دخان. الآن جسدي ليس هنا ولا عقلي. أنا آخر. أنا غيري. منذ متى كنت أنا أنا ؟ الآن أقترب من الشارع الذي أسكن فيه. تقودني الغريـــزة في طريق العودة. ألمح بآخر ما تبقى من ضوء، خمسة أشباح على ناصية قادمة، وظلّ امرأة في نهاية الشارع، تبدو كما لو أنها تضع شالاً علـــى كتفيها، وكلبٌ ينبح في بقعة ما، لا أعرف هل هي بعقلي أم خـــارجي. أقتربُ من الناصية فأسمع صوت المعدن، وأرى حدَّ المطواة.

خالد عبد القادر

صدر له

- نادية شعر
- سيرة الأراجوز شعر

تحت الطبع

- أسرار يعرفها الجميع شعر
- فوسفور: رواية

تواصل

Khaledkader81@yahoo.com